

التعريف بالفارابي

(٢٥٩ هـ - ٣٣٩ هـ)

هو أبو محمد بن محمد بن محمد بن محمد، وهو محمد بن محمد بن نصر، وهو محمد بن محمد بن محمد بن طرخان، وهو محمد بن أوزلغ بن طرخان، وهو محمد بن طرخان بن أوزلغ.

هذه هي روايات المؤرخين في نسبه، وأنت ترى أنه لا اتفاق بينهم على تسمية آبائه ولا على ترتيبهم - ولم يعن أحد منهم بالإشارة إلى اسم أمه ولا إلى نسبها.

أما أبوه فيقول ابن أبي أصيبعة: إنه كان قائد جيش، وهو فارسي النسب ولعله كان من صغار القواد الذين لم يحفل التاريخ بتدوين أخبارهم.

واختلف المؤرخون كذلك في بلده. فابن النديم يقول إنه من الفارياب من أرض خراسان. والبيهقي يقول إنه من فارياب "تركستان" ويقرر ابن أبي أصيبعة أن مدينة "فاراب" من بلاد الترك في أرض خراسان. أما صاعد والقفطي والشهرزوري فيذهبون إلى أنه من الفاراب إحدى مدن الترك في ما وراء النهر. ويذهب ابن خلكان أيضاً إلى هذا الرأي ويقول: إن فاراب كانت تسمى لعهد أطرار وهي مدينة فوق نهر الشاش قريباً من بلاساغون.

أما ابن حوقل فيذهب في كتابه "المسالك والممالك" إلى أن الفارابي ولد في "وسيج" وهي حصن صغير في ولاية "فاراب".

ويرى الأستاذ "بارتولد" في مقاله المنشور بدائرة المعارف الإسلامية أن

مدينة فاراب حديثة النشأة لأنها لا يرد ذكرها عند ابن حوقل أو الأصبخري اللذين عاشا في أوائل القرن العاشر الميلادي، وإنما ترد في كتاب المقدسي الذي عاش في أواخر القرن المذكور. ولسنا نشاطر الأستاذ باتولد رأيه هذا لأن مدينة فاراب ورد ذكرها أيضاً عند ابن خرداذبة النوهي سنة ٣٠٠ هـ وهو متقدم على ابن حوقل والأصبخري ينحو نصف قرن من الزمان.

ومهما يكن من شيء فلا نزاع في أن فاراب مدينة من مدائن الترك في ما وراء النهر، أما فارياب فمدينة في كرج جوزجان من أرض خراسان.

فإلى أي هذه البلاد المختلفة ينسب الفارابي؟

لا جدال في أن "الفارابي" نسبة إلى فاراب، ولقبه هذا يخرج من فارياب لأنه لو كان ينتسب إليها لكان لقبه الفاريابي، وهو يخرج من خراسان لأنه لم يكن بها مدينة تسمى فاراب.

وسواء أكان من وسيج كما يقول ابن حوقل أم من فاراب فإن الأمر ينتهي إلى شيء واحد لأن وسيج كانت حصناً من حصون فاراب.

رأيت مما تقدم اختلاف الروايات في نسب الفارابي، وفي بلده.

ونحن إذا حاولنا أن نقف على نشأته، لا نجد في كتب التراجم ما يشفي الغليل. وأغلب الظن أن السبب في هذا بعده عن الحياة العامة التي عنى المؤرخون بتدوين أيامها وأخبار من كان لهم في حوادثها الهامة نصيب.

وكان من سوء حظ الفارابي أن جاء بعده الرئيس ابن سينا أو الشيخ الرئيس، واثق نجمه في ميدان الفلسفة كما سطع في سماء السياسة، وأفاض الشيخ الرئيس في التأليف وصنف كتباً مطولة اشتملت على مذهب الفارابي

فى الفلسفة وأغنت الناس عن رسائله الموجزة، وألقت على تاريخه ظلالاً من النسيان .

وابن أبى أصيبعة له فضل السبق فى الكلام على نشأة الفارابى، ذكر فى ذلك روايتين:

روى اختلاف عن الأمدى فقال: إن الفارابى كان فى أول أمره ناظوراً فى بستان بدمشق .

ثم روى رواية أخرى قال فيها: " وفى التاريخ أنه كان فى أول أمره قاضياً فلما شعر بالمعارف نبذ ذلك وأقبل بكليته على تعلمها " .

وإيراد هاتين الروايتين يكشف عما أحس به ابن أبى أصيبعة من الحيرة والشك، أو هو على الأقل يشعر بعدم الاطمئنان إلى القطع بإحدى الروايتين وإيثارها على الأخرى .

وأول ما يطالعنا به التاريخ فى أمر الفارابى يبدأ بدخوله إلى بغداد .

وإذا كنا لا نعرف التاريخ الذى خرج فيه الفارابى من بلده ولا التاريخ الذى وصل فيه إلى مدينة السلام فإننا نستطيع أن نتلمس ذلك استنباطاً من ثنايا كلام المؤرخين .

فقد ذكر صاعد والقفطى " أن الفارابى دخل العراق واستوطن بغداد وقرأ بها العلم الحكيمى على يوحنا بن حيلان المتوفى بمدينة السلام فى أيام المقتدر " .

ثم قرر أنه كان معاصراً لأبى بشر متى بن يونس .

وترجم القفطى لأبى بشر فيقول:

متى بن يونس النصرانى المنطقى نزيل بغداد، عالم بالمنطق، شارح له،
مكثر وطفىء الكلام، قصده التعليم والتفهيم، وعلى كتبه وشروحه اعتماد أهل
هذا الشأن فى عصره ومصره وكان ببغداد بعد عشرين وقيب ثلاثين وثلثمائة.

ويروى ابن خلكان أن الفارابى لما دخل بغداد كان بها أبو بشر متى.
ونحن نرجح أن ذلك كان قبل سنة عشرين وثلثمائة يدفعنا إلى هذا الرأى ما
رواه ابن أبى أصيبعة الذى يقول: "وفى التاريخ أن الفارابى كان يقرأ النحو
على أبى بكر بن السراج وكان ابن السراج يقرأ عليه المنطق".

ويروى ابن النديم عن ابن درستويه "أن ابن السراج كان من أحدث
غلمان المبرد سنا مع ذكائه وفطته، وكان المبرد يميل إليه ويقر به ويشرح له
ويجتمع معه فى الخلوات والدعوات ويأنس به. قال رأيت ابن السراج يوماً
وقد حضر عند الزجاج مسلماً عليه بعد موت المبرد، فسأل رجل الزجاج فى
مسألة، فقال لابن السراج: أجه يا أبا بكر، فأجابه فأخطأ. فانتهره الزجاج
وقال له: والله لو كنت فى منزلى لضربتك لكن المجلس لا يحتمل هذا. وقد
كنا نشهد لك بالذكاء والفطنة كأبى الحسن بن رجاء وأنت تخطئ فى مثل
هذا. فقال: قد ضربتنى يا أبا اسحق وأدبتنى وأنا تارك ما درست مذ قرأت
هذا الكتاب - يعنى كتاب سيبويه - لأننى تشاغلته عنه بالمنطق والموسيقى.
والآن أنا أعاود. فعاود وصنف وانتهت إليه الرياسة بعد موت الزجاج".

وقد أيد القفطى هذه الرواية وحكى عن عبد الله المرزبانى: "أن ابن
السراج صنف كتاباً فى النحو سماه الأصول انتزعه من أبواب كتاب سيبويه،
وجعل أصنافه بالتقاسيم على لفظ المنطقيين فأعجب بهذا اللفظ الفيلسفيون
وإنما أدخل فيه بلفظ التقاسيم. فأما المعنى فهو كله من كتاب سيبويه".

وإذا كنا قد فقدنا كتاب الأصول فقد استمر الأثر في تلاميذ ابن السراج، فقد كان تلميذه أبو الحسن علي بن عيسى المعروف بالرماني يمزج كلامه بالمنطق حتى قال أبو علي الفارسي: "إن كان النحو ما يقوله أبو الحسن فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء".

ويقدم ابن جنى تلميذ أبي الحسن وأبي علي الفارسي لكتابه "والخصائص" فيقول: علي أن أبا الحسن كان قد صنف في شيء من المقاييس كتباً، إذا أنت قارنته بكتابتنا هذا علمت بهذا إنا نبنا عنه فيه وكفيناها كلفة التعب به وكافأناه علي لطيف ما أولانا من علومه المسوقة إلين المفيضة ماء البر والباشاة علينا.

وكتاب الخصائص بين أيدينا وكل صفحة من صفحاته شاهد ناطق جلي علي أن النحو قد تأثر بالمنطق تأثراً كبيراً.

لا شك إذن بعد هذا في أن ابن السراج كان قد اشتغل بالمنطق وتأثر به في مصنفاته وتأثر به تلاميذ مدرسته من بعده.

والصلة التي كانت بين الفارابي وابن السراج علي ما رواه ابن أبي أصيبعة ترجع ما ذهبنا إليه من أن الفارابي دخل بغداد قبل عشرين وثلاثمائة، ذلك لأن ابن السراج توفي سنة ستة وثلاثمائة وعشر اتفق علي ذلك ابن الأثير وابن الأنباري والقفطي وابن خلكان وأبو المحاسن.

ولو صح ما رواه ابن النديم عن ابن دستويه لكان تشاغل ابن السراج بالمنطق والموسيقى قبل سنة ثلاثمائة وعشر أو إحدى عشرة وثلاثمائة وهما التاريخان اللذان قيل ن الزجاج توفي في أحدهما.

وإذا كان ابن السراج يصرح أن تشاغله بالمنطق والموسيقى قد أنساه كتاب سيويه وعرضه للخطأ في النحو وقد كان مضرب المثل فيه فلا بد أن يكون هذا التشاغل قد استمر طويلاً، ونحن نرجح من هذا أن صلة الفارابي بانب السراج كانت سابقة على سنة ثلثمائة وعشر وأن قدومه إلى بغداد كان قبل هذا التاريخ.

ويروى ابن أبي أصيبعة أن سبب قراءة الفارابي للحكمة هو أن رجلاً أودع عنده جملة من كتب أرسطاليس فاتفق أن ينظر فيها فوافقت منه قبولاً وتحرك إلى قارئها ولم يزل إلى أن أتقن فهمها وصار فيلسوفاً بالحقيقة. وقد توافق صاعد والقفطي وابن أبي أصيبعة على أن الفارابي قرأ على يوحنا بن حيلان ببغداد وأنه كان معاصراً لأبي بشر متى بن يونس إلا أنه كان دونه في السن وفوقه في العلم.

غير أن ابن خلكان يخالفهما في ذلك ويقرر أنه كان تلميذاً لأبي بشر متى وأنه كان يحضر حلقاته في غمار تلامذته، وظل برهة على ذلك ثم ارتحل إلى مدينة حران وفيها يوحنا بن حيلان الحكيم النصراني فأخذ عنه طرفاً من المنطق أيضاً، ثم أنه قفل راجعاً إلى بغداد وقرأ بها علوم الفلسفة وتناول جميع كتب أرسطاليس وتمهر في استخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها.

وما يجعلنا نتردد في قبول رواية ابن خلكان أن صاعداً والقفطي وابن أبي أصيبعة وهم متقدمون عليه ولم يذكروا أن الفارابي قرأ على أبي بشر متى، بل أن صاعداً والقفطي اللذين يقرران أن كتب أبي بشر متى في المنطق كانت عمدة الناظرين في هذا العلم في عصره قد وازنا أيضاً بين الحكيمين وانتهينا إلى أن الفارابي كان دون أبي بشر في السن وفوقه في العلم.

ويحدثنا الفارابي نفسه عن انتقال الفلسفة إلى المسلمين فيقول: أن أساقفة الإسكندرية اجتمعت وتشاورت فيما يطلق من تعليم كتب أرسطاليس وما يبطل، فراوا أن يعلم منه كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية ولا يعلم ما بعده لأنهم رأوا أن في ذلك ضرراً على النصرانية وأن فيما أطلقوا تعليمه ما يستعان به على نصرته دينه، فبقى الظاهر من التعليم هذا المقدار وما ينظر فيه من الباقي مستوراً إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة فانتقل التعليم من الإسكندرية إلى أنطاكية وبقى بها زمناً طويلاً إلى أن بقي معلم واحد فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب فكان أحدهما من أهل حران والآخر من أهل مرو. فأما إلى من أهل مرو فتعلم منه رجلان أحدهما إبراهيم المروزي والآخر يوحنا بن حيلان، وتعلم من الحراني إسرائيل الأسقف وقويرى وصارا إلى بغداد، فتشاغل إبراهيم بالدين وأخذ قويرى في التعليم، وأما يوحنا بن حيلان فإنه تشاغل أيضاً بدينه وانحدر إبراهيم المروزي إلى بغداد وتعلم من المروزي متى بن يونان وكان يتعلم في ذلك الوقت إلى آخر الأشكال الوجودية.

يقول ابن أبي صبيعة ثم قال أبو النصر الفارابي عن نفسه: "أنه تعلم من يوحنا بن حيلان إلى آخر كتاب البرهان".

ونحن نرى من هذا أن الفارابي عرض لذكر أبي بشر متى ثم صرح بأنه تعلم على يوحنا بن حيلان ولو كان قرأ على متى أيضاً لذكر ذلك كما ذكر أستاذه الأول.

ورواية ابن خلكان تتضمن أيضاً أن الفارابي لما وصل إلى بغداد كان يعرف اللسان التركي وعدة لغات غير العربي فتعلمه وأتقنه غاية الإتقان. وقد

ورد هوار هذه الرواية فى كتابه عن الأدب العربى وأعادها أو ليرى فى كتابه عن "الفكر العربى وكرانه من التاريخ" فقال: وفى بعض أسفاره - أى الفارابى - جاء إلى بغداد ولكنه لم يكن يعرف العربية حينذاك. فلم يكن فى مقدوره أن يتصل بالحياة العقلية فيها فبدأ يتعلم اللغة العربية ثم تتلمذ لمتى ابن يونس الحكيم النصرانى.

وليس من السهل أن نسلم بهذه الرواية لأنها لو صحت لكان معناها أن الفارابى سافر من فاراب إلى بغداد وهو يجهل اللسان العربى ثم تعلمه بعد أن جاوز سن الكهولة ثم صنف باللغة العربية ما نيف على المائة من الكتب والرسائل فى أواخر أيامه.

ومما يصعب هذه الرواية أيضاً أنا نجد الفارابى يملك ناصية اللغة مصقول العبارة حسن الأداء، يصوغ المعانى الدقيقة فى أسلوب لين طبع حتى قال بعض علماء المنطق: إنه كان يسلك طريق تفهيم المعانى الجزلة بالألفاظ السهلة. وقال صاعد: إنه شرح الكتب المنطقية وأظهر غامضها وكشف سرها وقرب تناولها، وجمع ما يحتاج إليه منها فى كتب صحيحة العبارة لطيفة الإشارة.

قلنا أن الفارابى كان يملك ناصية اللغة وليس فى أسلوبه ما يدل على قرب عهده بالعربية. وهو وإن كان تركياً إلا أن عهده بلده بالفتح الإسلامى كان قد مضى عليه أكثر من قرنين عند مولده وفى هذا ما يكفى لاستعراب المقيمين فى فاراب. هذا إلى أن الأثرأق قبل مولد الفارابى بقرن كانوا قد اندمجوا فى الامبراطورية العربية وأصبحوا من أهم العوامل فى سياستها. على حرابهم تستند الخلافة ويستقيم الحك ومعها فقد طغت عليهم لغة

العرب فجذبتهم إليها واستغرقتهم فيها ونبغ منهم الفقهاء والشعراء واللغويون فاتخذوا العربية لغتهم العلمية .

نضرب لذلك مثلاً باثنين ممن حضروا عصر الفارابي وولدا في بلدة فاراب أولهما إسماعيل بن حماد الجوهري مصنف الصحاح، وثانيهما أبو إبراهيم اسحق ابن إبراهيم الفارابي صاحب ديوان الأدب .

ولم نذهب بعيداً ونتلتمس الشواهد في غير الفارابي وليس من المعروف أنه صنف بالفارسية أو التركية ولدنيا من كلامه ما يدل على أنه يعد العربية لغته العلمية .

يقول في تحصيل السعادة: وأما معنى الإمام في لغة العرب قائماً يدل على من يؤتم به ويتقبل . . . " ثم يقول بعد بيان معنى الفيلسوف والرئيس الأول وواضع النواميس والملك: فتبين أن معنى الفيلسوف والرئيس الأول والملك وواضع النواميس والإمام معنى واحد، " وأى لفظ أخذت من هذه الألفاظ ثم أخذت ما يدل عليه عند جمهور أهل لغتنا وجدتها كلها تجتمع في آخر الأمر في الدلالة على معنى واحد بعينه " .

الظاهر هو أن الفارابي لما نزل بغداد أراد أن يتقن علوم اللغة وهذا أمر كان يطلبه العرب أنفسهم، فدرس النحو على ابن السراج إمام النحويين في عصره، وتوسع ابن خلكان ومن ذهب مذهبه في فهم رواية ابن أبي أصيبعة وحملوها على أن الفارابي كان يجهل اللسان العربي، وشتان بين الرغبة في إتقان علوم اللغة والرغبة في تعلم اللغة نفسها .

وقد روى ابن خلكان أن الفارابي كان يعرف أكثر من سبعين لساناً . ومع ما في هذا من الشطط فإنه لا يخو من أثر الحق، فقد كان الفارابي يعرف

التركية بالضرورة وقد رجح "ده بور" أنه كان يعرف التركية بالضرورة وقد رجح "ده بور" أنه كان يعرف الفارسية أيضاً وقد أتقن العربية وهو يتحدث في بعض كتبه عن اللغة اليونانية حديث خبير بها. يعرض لنحوها عندما يتكلم عن النحو في إحصاء العلوم ويبين اشتقاق بعض ألفاظها ومعانيها في كلامه على لفظ الفلسفة ولفظ سوفسطيقا، وكلما عرض لصوت من الأصوات أو نغمة من النغم ذكر اسمه بالعربية ثم أردفه بمقابلته في اليونانية.

وجملة القول هو أن المعروف عن أساتذة الفارابي أنه درس النحو على أبى بكر بن السراج وطرفاً من المنطق على يوحنا بن حيلان. وإذا استطعنا أن نذهب مذهب المتقدمين في تعليل تفوقه على علوم الحكمة بأنه توفر على درس كتب أرسطاليس واستخرج معانيها فإن معرفته لكثير من اللغات وبراعته في الموسيقى العملية والرياضيات وإلمامه بالطب كل ذلك يهيم لنا أن نفترض أنه كان للفارابي أساتذة آخرون درس عليهم دراسات مختلفة وإن كان التاريخ لم يمهّد لنا السبيل لمعرفة أسمائهم.

على أنه يظهر أن الفارابي لم يكن ممن يستقر بهم المقام في بلد بعينه بل كان ميالاً للأسفار محباً للتنقل لا يكاد يستقر ببلد حتى يرحل عنه إلى غيره. ولا يطمئن إلى موطن حتى يطير عنه إلى سواه.

ويذهب المؤرخون في رواية أسفاره مذاهب شتى وسبلا متفاوتة. فصاعد والقفطى يذكران أنه دخل العراق واستوطن بغداد ثم قدم على سيف الدولة ابن حمدان إلى حلب وأقام في كنفه مدة. ثم رحل في صحبته إلى دمشق فأدرکه أجله بها.

على أنه يبدو من كتاب الموسيقى أن فيلسوفاً جاس أيضاً خلال خراسان قبل أن يهبط العراق.

ويروى ابن أبي أصيبعة أن الفارابي انتقل من بغداد إلى الشام وأقام به إلى حين وفاته.

ثم يروى رواية أخرى يذكر فيها أنه نقل من خط بعض المشايخ " أن أبا نصر سافر إلى مصر سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة، ورجع إلى دمشق وتوفى بها في رجب سنة تسع وثلاثين وثلثمائة، عند سيف الدولة بن حمدان في خلافة الراضى وهذا خطأ تاريخي إذ أن الراضى توفى سنة ٣٢٩ هـ. وقد ذكر عند كلامه على كتب الفارابي أنه ابتداء بتأليف كتاب المدينة الفاضلة ببغداد وحمله إلى الشام في آخر سنة ثلاثين وثلثمائة، وتمه بدمشق في سنة إحدى وثلاثين وثلثمائة، وحرره ثم نظر في النسخة بعد التحرير فأثبت فيها الأبواب، ثم سأل بعض الناس أن يجعل له فصولا تدل على قسمة معانيه فعمل الفصول بمصر في سنة سبع وثلاثين وثلثمائة.

أما ابن خلكان فيروى أن الفارابي رحل من بلده إلى بغداد ثم انتقل منها إلى حران ثم عاد إلى بغداد وأكب فيها على الدرس والتحصيل وألف بها معظم كتبه ثم سافر إلى دمشق ولم يبق بها، ويروى عن كتاب السياسة المدنية ما رواه ابن أبي أصيبعة عن كتاب المدينة المفاضلة.

ولسنا نجد في الكتابين كما وصلا إلينا ما يشير إلى شيء من هذا. وقد روى البيهقي عنه الشهرزوري أن " الفارابي ذهب إلى الري استقدمه إليها كافي الكفاة الصاحب بن عباد وبعث إليه هدايا وصلات واستحضره واشتاق إلى ارتباطه وأبو نصر يتعفف وينقبض ولا يقبل منه شيئاً، حتى ضرب الدهر

ضرباته ووصل أبو نصر إلى الرى وعليه قباء وسخ وقلنسوة بلقاء ودخل مجلس الصاحب متكرراً وكان المجلس خاصاً بالندامى والظرفاء وأرياب اللهو، فاضافوا الجرم إلى البواب، ورموا إليه أسهم العتاب، واستهزأوا بي نصر كل من كان فى ذلك المجلس، وهو يحتمى أذى الأيدى ويفضى على قدى الأذى والاستهزاء، حتى اطمأنت أنفسهم لمجالسته، وأنساهم الشراب ذكره ودارت الكؤوس وطربت النفوس. وحمل أبو نصر مزهراً واستخرج لحناً مع وزن نوم المستمعين، وصار كل واحد كالذى يغشى عليه من الموت وكتب على البربط زاركم أبو نصر الفارابى واستهزأتم به فنومكم ثم خرج من الرى متكرراً مع رفقة متوجهاً إلى بغداد".

ويروى ابن خلكان قصة قريبة من هذه على أنها حدثت بين الفارابى وسبق الدولة.

ولا شبهة لدينا فى أن قصة البيهقى تمثل خيال الكاتب وفنه دون أن تمت إلى الحقيقة بنسب، ودليلنا على هذا أن الصاحب إسماعيل بن عباد ولد سنة ست وعشرين وثلثمائة، فهو عند موت الفارابى كان صبيّاً صغيراً ولم يكن له بعد مجلس يضم الندامى والظرفاء.

ويرجح "ده بور" أن هجرة الفارابى من بغداد يرجع سببها إلى الفتن السياسية. والواقع أن هذا العصر كان عصر فتن متصلة لا تكاد تخبو واحدة حتى تشب الأخرى، ومن العسير أن نفرق فيه بين الدين والسياسة. فقد كانت بغداد تموج بتيارات من التفكير شديدة التناقض عنيفة الوسائل تتخذ سفك الدماء وسيلة من وسائل الاقتناع.

نجد مثلاً أن الحنابلة كانوا قد اعتنقوا مخالفيهم واصطنعوا الشدة والعنف

وعظم أمرهم وقويت شوكتهم وصاروا يكسبون دور القواد والعامّة، وإن وجدوا نبي أرافوه وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة لغناء، واعترضوا في البيع والشراء. ومشى الرجال مع النساء والصبيان فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذى معه من هو فأخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة، فأرهبوا بغداد واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد، وكان إذا مر بهم الشافعى المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيتهم حتى يكاد يموت.

ونجد من ناحية أخرى أن القرامطة، وهم جماعة من مجوس الديلم أظهروا الإسلام وأضمروا دينهم القديم، لما أحسوا ضعف الخلافة أيام المقتدر جهروا بدعوتهم، وتألوا أصول الدين على الشرك، واحتالوا لتأويل أحكام الشريعة على وجوه تؤدى إلى رفع الشريعة، ثم جمعوا جموعهم واستولوا على هجر والإحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين، وغزوا البصرة والكوفة. وعاث رئيسهم أبو طاهر سليمان الجنابى فى أرض الجزيرة نهبًا وقتلًا إلا من اعتصم منه بالأمان والفدية. واستولى على الأنبار ونهب دور مكة، وانتهك حرمة البيت الحرام، وانتزع الحجر الأسود من مكانه ثم أعاده إليه. واستقل بملك البحرين وما صاقبها.

ففتنة مذهبية من ناحية وفتنة دينية من ناحية أخرى، وإلى جانب هاتين الفتنتين يتمثل التصوف فى شخص الحلاج ويفتن به أتباعه ويحيطونه بطائفة من الأساطير ويذكرون عنه الأعاجب. حتى خشى المقتدر الفتنة فاحتال على قتله ومثل به أشنع تمثيل.

ونجد من ناحية أخرى فتناً سياسية متلاحقة كان منشؤها ضعف المقتدر

ومن جاء بعده من الخلفاء حتى طمع الأمراء، فى الأطراف وهاجموا بغداد مرات، وظلت أيام المقتدر والراضى والمكتفى كالأرجوحة تهزها فتن متواصلة ويتلقفها أمير بعد أمير.

والذى نرجحه هو أن الفارابى هاجر من بغداد اتقاء فتنة ابن البريدى الذى فتح بغداد سنة ثلاثين وثلثمائة فثار العامة كما يروى ابن الأثير وأحرقوا ونهبوا وأخذوا الناس ليلاً ونهاراً واشتد الغلاء وكان ابن الزبيدى مع ذلك ينهب ويعسف أهل العراق ويظلمهم ظلماً لم يسمع بمثله قط.

واتجه الفارابى إلى الشام حيث نزل فى رحاب سيف الدولة فى حلب ثم صحبه عندما افتتح دمشق سنة ٣٣٤ هـ وعاش فى كنفه حتى مات فى سنة ٣٣٩ هـ وقد نيف على الثمانين.

وروى ابن خلكان أنه كان مدة مقامه بدمشق لا يكون غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض يؤلف هناك كتبه ويتناوبه المشتغلون عليه. وتلك حياة فيلسوف زاهد لم يقتن مالا ولا اتخذ صاحبة ولا ولداً. وكان يستطيع أن يستمتع برغد العيش عندما اتصل بسيف الدولة الذى أجرى عليه رزقاً من بيت المال، ولكنه اقتصر على أربعة دراهم كان يخرجها فيما يحتاج إليه من ضرورى معاشه. وكان مع ذلك عزيز النفس موفور الكرامة لا يخضع لاستقراطية المولد ولا يعبأ بأرستقراطية المال بل يضع فوقهما ارستقراطية العلم ويقرر أن أحرى الناس بالرياسة هو الفيلسوف الكامل.

وقد روى للفارابى شعر فيه نفحة من أساليب الفلاسفة أحياناً، وفيه أحياناً صريح محب للعزلة سئى الرأى فى الناس.

ومما روى من شعره:

يا علة الأشياء جمعًا والذي
رب السموات الطباق ومركز
إني دعوتك مستجيراً مذنباً
هذب يفيض منك ربا الكل من
وروى له:

لما رأيت الزمان نكسا
كل رئيس به مسلال
لذمت بيتي وصنت عرضاً
أشرب مما اقتنيت راحاً
لى من قواريرها ندامى
وأجتبى من حديث قوم
وروى له أيضاً:

بزجاجتين قطعت عمري
فزجاجة ملئت بحبر
فبذا أدون حكمتي
وعليهما عولت أمرى
وزجاجة ملئت بخمر
وبذا أزيل هموم صدرى
وذكر ابن خلكان أنه وجد في مجموعة أبياتاً منسوبة إلى الفارابي هي:

أخى حل حيز ذى باطل
فما الدار دار مقام لنا
وكن للحقائق فى حيز
وما المرء فى الأرض بالمعجز

ينافس هذا لهذا على أقل من الكلم الموجز
وهل نحن إلا خطوط وقمن على نقطة وقع مستوفز
محيط السموات أولى بنا فماذا التنافى فى مركز

وقد شك ابن خلكان فى صحة هذه الأبيات وذكر أنه رآها فى الخريدة
منسوبة إلى محمد بن عبد الملك الفارقى البغدادى من شعراء القرن السادس
الهجرى .

ونحن نشك فى أن يكون معظم هذا الشعر للفارابى لما فى أسلوبه من
تكلف بنبو عنه أسلوب فيلسوفنا وطبعه ولما فيه من تبرم بالحياة ونفور من
الناس واستهتار بالشراب .

والفارابى إنما كان يعتزل الناس ويؤثر الوحدة حتى يفرغ إلى تقويم
النفس وجعل شهوتها للحق وحده حتى إذا أحكم تقويمها ارتقى منا إلى
تقويم غيرها كما ذكر ذلك تبريراً لتخلى أفلاطون عن كثير من الأسباب
الدنيوية وإيثاره تجنبها . ولم يكن الفارابى ضجراً بالحياة ولا متبرماً بالناس .
أما الخمر فما نجسه كان يشربها شهوة وتلهياً . ذلك الرجل الذى كف نفسه
عن شهوات الحياة الدنيا ولهوها .

وقد اتفق معظم المؤرخين على أن الفارابى توفى بدمشق سنة تسع
وثلاثين وثلاثمائة . ذكر ذلك ابن أبى أصيبعة أيضاً وإن كانت إحدى النسخ
الخطية من عيون الأنباء تجعل الوفاة سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة . غير أننا
نرجح أن ذلك خطأ من الناسخ .

يقول ابن أبى أصيبعة أن الفارابى عندما توفى صلى عليه سيف الدولة

فى خمسة عشر رجلا من خاصته. ومعنى هذا أن الأمير الحمدانى كان بدمشق عند وفاة الفارابى. غير أن ابن الأثير يحدثنا أن دمشق لم تكن حينذاك خاضعة لسيف الدولة إذ كان صد صالح كافور الأخشيدى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة على أن تكون دمشق للإخشيد وأن تظل حلب لآل حمدان. وهذه الحقائق تجعل مجالا للشك فى صحة ما رواه ابن أبى أصيبعة.

أما البيهقى فيروى أن الفارابى كان يرتحل من دمشق إلى عسقلان فاستقبله اللصوص فقال لهم: خذوا ما معى من الدواب والأسلحة والثياب وخلوا سبيلى فأبوا ذلك وهموا بقتله فلما صار مضطراً ترجل وحارب حتى قتل مع من معه. ثم وصف البيهقى ما كان لهذه المصيبة من وقع فى أفئدة أمراء الشام فطلبوا اللصوص ودفنوا أبا نصر وصلبوهم على قبره.

ويظهر أن هذه القصة قابلة للمطاعن فإننا نلاحظ أن المسعودى وهو أقرب المؤرخين إلى الصحة فى هذا الموضوع لأنه عاصر الفارابى وتوفى بعده بسنوات قليلة يذكر نبأ الوفاة وتاريخها دون أن يشير بحرف إلى قصة القتل. هذا إلى أن هذه الرواية لم يوردها مؤرخ آخر وإنما انفرد بها البيهقى ونقلها عنه الشهرورى.

وفى تفاصيل رواية البيهقى ما يحيطها بالشكوك وبعدها عن الصدق فنحن نعلم أن الفارابى كان زاهداً رقيق الحال ويأبى البيهقى إلا أن يجعله من أصحاب الدواب والأسلحة ولم تشفع لديه سنة المقدمة فجعله من رجال الكر والفر.

على أن رواية البيهقى تتلاقى فى جملتها وتفصيلها مع المشهور عن قتل المتنبى شاعر سيف الدولة ويظهر أنها حملن على الفارابى فى القرن السادس

وليس هذا بغريب، إذ يظهر أن شخصية الفارابي كانت موضوعاً لخيال الكتاب حتى قال البيهقي: أن بعض من لم يكن له معرفة بالتواريخ "يحكى أن أبا نصر قد عراه المالىخوليا ومر على شط دجلة برجل يبيع التمر، فقال له: كيف تبيع التمر فأجاب الرجل بكلام غير ملائم فضربه وقال: أسألك عن الكيف وأنت تجيب عن الحكم.

ولسنا فى حاجة إلى تنفيذ هذه الأسطورة فقد كفانا البيهقي مؤونة ذلك.

* * *